لماذا رَفَضوا أن تَقصَّ فَطْمة حكايتَها؟

منْهل السرّاج

إذا كنتُ أكتب فلأنَّ واحدًا من قرّائي سوف يصبح صديقي، وستَرْمش عيونُه مع صفحات كتابي ويبتسم. فلماذا، وبأيّ حقّ، يغتالون هذه الصداقات؟

ولِمَ أصرَّ الرقيبُ على إرباك خطواتي في تجربتي الأولى مع الرواية؟

أَعْترف بأنّني حين كتبتُ لم يكن الرقيبُ حاضرًا ولم أتذكّرْه، بل كنتُ مشغولةً بإيجاد مكانٍ للغتي. لكنه كان يَنتظر الطريدةَ كي تكونَ في مركز المربَّع، فيصيبَ هدفَه ويشتغل؛ فلا جدوى من وظيفته إنْ لم يفعلْ ذلك.

أما آن له أن يتقاعد؟

◆ ◆ ◆

فَطْمة، التي شربت المدينة بعصيانها، نشأتْ، وسط الصراعات، بنتًا تَرْقب الطائراتِ من أعلى الشجرات، مُستمعةً إلى تلميحات الصبيان. تقيس كلَّ صباح طولَ قامتها بطول نخلتها. أَحبَّتْ في الثامنة عشرة، مختارةً بكلّ بساطةٍ شابّاً ينتمي إلى جماعة الطرف الآخر، جماعةِ «أبو شامة.» ثم راحت تَشْهد سقوطَ الشابّ مقتولاً على درج لقائهما، وبقعةُ دمٍ تسيل عن شفته. لا تَذْكر إنْ كان قاتلُه من جماعة عمِّها، أَمْ من جماعة خصمه؛ فهي لا تدين أحدًا. وبعد سنين من الانتظار اختارت زوجًا من النازحين إلى مدينتها، لأنَّها ـ وببساطة أيضًا ـ أَحَبَّتْ أغانيَ البيّارات ودندنةَ العود وابتسامةَ الرجل التي تُذَكِّرها بابتسامة أبطال روايات يوسف السباعي. حملتْ ثمرةُ الزواج قطعةَ لحمٍ صفراءَ، فتركتْ بيتَ الزوج ورائحةَ غسيل ابنها قبل أن يُكفَّنَ ويُدْفَنَ، وعادت إلى البيت الكبير لتنشغلَ مع أهله بأحداث عنيفة: قتلٍ، وتدميرٍ، وتعذيبٍ، وغياب. وأخذتْ تَشْهد انهيارَ كلّ الصروح، وتَشْهد ذلَّ المدينة، ثم تبقى لتتحمّل التراجعَ وقَبْضَ التعويضات. يموت أبوها، وأمُّ الحُبّ المربيةُ التي لم تعرف دينَها. وتتوالى الخيباتُ عبر علاقات عاطفيّة تنتهي بأن تَحْلم بإخصاب رَحِمِها بلا شريك.

◆ ◆ ◆

تأتي هذه التداعياتُ عبر صندوق الجدّة، وقبوِ القبو، وأشياءِ الغائبين: دفاترِهم، كتبِهم، بيجاماتِهم، وسائدِهم، ضفّةِ النهر، البيتِ الكبير.

بقيتْ وحدها تَزْرع وتعالج وترمِّم، في بيتٍ عتيقٍ بنوافذه وواجهته ومزروعاته وأدراجه وخلفيّته التي تتماهى مع ضفّة النهر. تَطْبخ كلَّ يومٍ ما يكفي عشرةً كي تُطْعم لميا المجنونةَ، التي لم تكن مجنونةً، والمؤذِّنَ أبا رحمون، وبعضَ الجيران. تحاول صابرةً فَهْمَ ممارسات الجرذ الذي لم تستطعْ مقاومتَه، وانتظارَ أخيها أحمد الذي أخذوه مبلِّلاً ثيابَه ببوله.

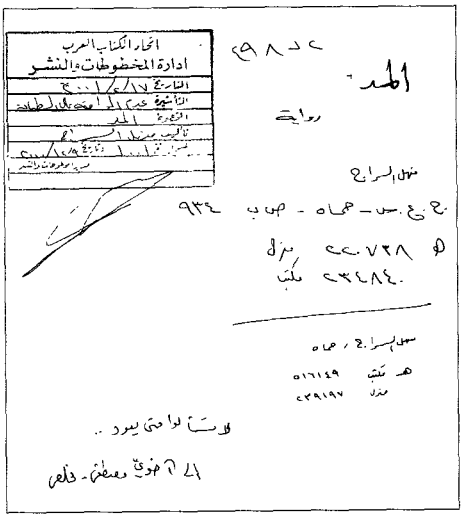

لِمَ أصرّ الرقيب على إرباك خطواتي في تجربتي الأولى؟

من خلال زمن الجرذ تتداعى الذكرياتُ، نَزِقةً مدوّخةً مثلَ طيورِ حديقتها، لتنتهي بمرض السرطان في الغدّة الدرقيّة. وقبل أن تَزْفر حياتَها وتوصيَ لميسَ ابنةَ أختها، أمَلَها، تواصل هذيانَها بالأحداث التي ارتكبها رجالُ أبي شامة في حارتها.

تستلقي كما ينبغي لنهر بجانب قلعة المدينة.

وتنتهي حكايةُ فطمة بفصلٍ لم يُكتب بعدُ، فصلٍ يتحدث عن روايتها التي خُتِمَتْ بأختام الممنوع.

◆ ◆ ◆

كنتُ قلقةً على اللغة وعلى الإبداع، وروايتي الأولى ـ وهي بعنوان **المدّ** ـ بين أيدي لجنة القراءة. لكنّ ما حدث هو أنّ الرأي الأول اقتصر فهمُه للرواية على أنها مكتوبةٌ بلغة الرمز لتؤرِّخ حقبةً ما من تاريخ مدينة. والثاني حذا حذوَ الأول، مستدركًا بـ «قد» التي تفيد الاحتمالَ، وأضاف أنّ باقي الدلالات الفكريّة للرواية مقبولٌ. ثم جاء الرأيُ الثالث ليعطي رأيًا حياديًا في ما يخصّ الوعيَ الفكريَّ لطبيعة الحياة والموضوع المقترح.

حملتُها بيدي من اتّحاد الكتّاب إلى وزارة الإعلام، مع تقارير القرّاء الثلاثة الذين أكّد اثنان منهما رفضَهما، في حين اكتفى الثالثُ بإعطاء رأي إيجابيّ في القيمة الفنيّة للرواية. أقول حَمَلْتُها عبر النفق الفاصل، وكنتُ آسفةً.. آسفةً جداً.

وأسفتُ أكثر حين قال أحدُهم: «لمنع روايتِكِ فائدةٌ كبيرةٌ لمستقبلك الأدبيّ»؛ فأنا لم أَسْعَ إلى ذلك.

الصِّدقُ لم يكن يومًا ذَنْبًا. إنّه مُحْرِج، وهذا صحيح، لكنّه الواقع مهما حاولنا طَمْرَ رؤوسنا.

كان آخرَ همٍّ لي هو السياسةُ، أو التنظيرُ، أو الإشارة.

أثمة مانع من أن أسأل: لصالحِ مَنْ كلُّ هذا الجنون، وكلُّ هذا الخراب؟

إلى متى نستمرّ في نفي بعضنا وإلغاءِ الحوار؟

◆ ◆ ◆

كنتُ أنوي التحدُّثَ عن فطمة المرأة، التي بَعْد عمرٍ من العصيان انصرفتْ إلى سجّادة الصلاة وتنظيفِ فضلات الطيور عن مزروعاتها، وإلى محاولة تربية جرذ البيت وإعداد الطعام. كيف انفلتتْ مني؟ وكيف تعالت واستطالت حتى احتملتْ كلَّ ما احتملتْ؟ أنا لا أعرف. ربما صارت لديّ درايةٌ في الكتابة. لكني لا أعرف الحديثَ عن هذه الدراية. فهذا سرٌّ أظن أنّني رزحتُ تحت وطأته الجميلة إلى أن أنزلتُه عن نفسي رغبةٌ منّي في أن يَحْملَها أصدقائي الذين سيقرأونني. وليس وراء هذا إلاّ المحبةُ الخالصة.

لقد شقّت فطمة دروبًا. حلّقتْ. حَفَرَتْ في ذاكرتي وديانًا وقذفتْني. صعدتُ في أحيان، ولهوتُ في أحيان. وبرغم قسوة النبش وآلام الخلاص، مضيتُ وراءها مغمضةَ العينين، فتعلّمتُ منها الكثير.

لم تَرْفضْ فطمة أحدًا، حتى جرذَ البيت. لكنّهم رَفَضوا أن تَقُصَّ حكايتَها.

◆ ◆ ◆

لستُ مؤرِّخةً. ولستُ عضوًا في تنظيمٍ معارض. همومُهم وهمومي قادتني كي أكتبَ ما كتبتُ. لم أنوِ التطرقَ إلى مواضيع تثير حساسيةَ أحد، ومازلت، وسأمضي في الكتابة عمّا يؤرّقني سعيًا وراء الجمال ـ جمالِ الإنسان والحياة.

حماه

منهل السَّرّاج

كاتبة سورية. من أعمالها القصصيّة: **تخطّي الجسر**. ولها رواية مازالت مخطوطةً لم توافق عليها الرقابة، وهي موضوعُ شهادتها أعلاه.